موقف عمر بن عبد العزيز من الشعر والشعراء

أ.د. وليد قصاب
أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها

تمهيد

رسم القرآن الكريم وأحاديث كثيرة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجه الكلمة النبيلة التي ينشدها الإسلام، ثم تجلت ملامح التصور الاسلامي الكبرى للأدب وأهدافه ووظائفه فيما أثر عن النبي ـ عليه السلام ـ من أقول ومواقف من الشعر والشعراء.

ثم مضى الراشدون المهديون من بعده يوطئون سبيل هذا التصور، ويحاولون تثبيت صُوّته في كل مكان، وتميّز الفاروق عمر ـ رضي الله عنه ـ الذي كانت آراؤه ومواقفه من أصحاب الكلمة نموذجاً فذاً لوعي ولي الأمر بخطر الأدب، والرؤية العقدية له، ودوره في صياغة وجدان الناس على نحو معين(١).

ولكن الكلمة غرّارة خدّاعة، وفتنة القول نفّاذة مؤثرة، والشعراء ـ إلا القليل منهم ـ غرض للجموح ومجاوزة المقدار، وإذا لم يجدوا السلطان الحازم الذي يرعى مسيرتهم، ويأخذ على أيديهم، على نحو ما فعل ابن الخطاب وغيره، كان الشرخ أعمق، وكان إغواء الكلمة لهم أبعد وأشطح.

ومن أسف أن تُنْتكس الكلمة ـ وقد ولى عهد الراشدين ـ في بعض علل الجاهلية مرة أخرى، وأن تعود الملامح الهجينة التي اجتثّها الإسلام لتشوّه وجهها. رجع كثير من الشعراء الى سابق عهدهم يمدحون ويهجون، ويتاجرون بالكلمة، ويستأكلون بالشعر، ويشبّبون بالنساء تشبيباً فاضحاً. عادوا يهيمون في أودية القول، ويمتطون ظهر السفه. دخل الشعر في اللعبة السياسية في عصر بني أمية من أوسع الأبواب، والتزم الشعراء السلطة يطّبلون لها ويزمّرون، وجند بعض أولي الأمر هذا السلاح الإعلامي الهام في الدعاية لهم، وسخروا الشعراء طبولاً جوفاء تصدع بما يريدون.

---

(١) أنظر بحثنا «نقد الشعر عند عمر بن الخطاب» في العدد الثاني من مجلة الكلية.

انتشر المديح بشعاً حاداً، وتفنّن الشعراء فيه، واكتملت تجاربهم بما ثقفوا من المعارف والعلوم الوافدة، وصار إتقانه معراجاً إلى السلطة، ثم الجاه والثروة. وشاع الهجاء الفاحش، وصار في بعض الأحيان غرض دعابة وتسلية وشغل للناس، وراحت تُنتهك فيه الأعراض والحرمات، وتتفجّر فيه حماقات الجاهلية القديمة، في الاعتداد بالأحساب والأنساب، والمباهاة بالآباء والأجداد، والفخر بقيم فاسدة بائدة.

لقد بدأت الصورة الكريمة التي دعا إليها الإسلام، وثبّتها الراشدون المهديّون، تهتز، والأرض التي امتلأت جوراً في مناح عدة شهدت كذلك انتكاسة في مسيرة الكلمة، وارتكاساً لها في وهدة السفه والضلال.

وكان لا بد من التذكير مرة أخرى. وكان لا بد من سلطان راشد يزع الله فيه ما لا يزع في القرآن، يعيد غواة القول إلى الجادة، ويحملهم على ما دعا الإسلام إليه من التزام ومسؤولية. وقد مثّل هذا الدور الخير النبيل في العصر الأموي الخليفة الفقيه، والعالم الأديب، والزاهد الورع، أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، رضي الله عنه.

ثقافة عمر الأدبية

لعل من أكثر خلفاء بني أمية الذين أثرت عنهم أقوال ومواقف تتعلق بالشعر والشعراء عبدالملك بن مروان، يليه في المرتبة الثانية معاوية بن أبي سفيان وعمر بن عبدالعزيز(١). وقد تجمعت لدينا طائفة غير يسيرة من آراء عمر النقدية، كما عُرفت له مواقف مع عدد من الشعراء الذين كانوا في زمانه، مثل جرير، والفرزدق، والأخطل، وعمر بن أبي ربيعة، وكثيرّ، وجميل بثينة، والأحوص، ونصيب، وسابق البربري، وغيرهم.

ومن تتبع هذه المادة النقدية يبدو عمر بصيراً بفن القول، ممكناً من النفاذ إلى أسراره ودقائقه، ومن تذوقه وتحليله، والقدرة على الحكم عليه. ولا عجب، فقد كان الرجل فصيحاً، فقيهاً، عالماً. وكان لا بد أن يكون الشعر واللغة مادة هامة في تكوينه الثقافي العلمي. روي عن ميمون بن مهران أنه قال: «أتينا عمر بن عبدالعزيز فظننا أنه يحتاج إلينا، فإذا نحن عنده تلاميذه»(٢). وقال مجاهد أو غيره: «أتينا عمر نعلّمه، فما برحنا حتى تعلّمنا منه»(٣). وقال عنه سفيان: «العلماء مع عمرَ بن عبدالعزيز تلامذة»(٤).

وكان يحفظ الشعر، ويرويه في مجالسه، ويتمثل به في كثير من المواطن. روى محمد بن الزبير الحنظلي، قال: دخلت على عمر ليلة وهو يتعشى كسراً وزيتاً، فقال: ادنُ فكل. قلت: بئس طعام المقرور، وأنشدني:

---

(١) جمعنا آراءهم ومواقفهم النقدية في كتابنا نصوص النظرية النقدية.

(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي: ٢٧.

(٣) حلية الأولياء: ٥/ ٣٤٠.

(٤) سيرة عمر لابن الجوزي: ٢٧.

إذا مـا مـات ميت مـن تميـم وسرّك أن يعيش فـجـيء بـزاد
بخبـز، أو بلحـم، أو بـتـمـر أو الشيء الملـفّف في الـبـجـاد

وأنشد بيتاً ثالثاً قافيته:

ليأكل رأس لقمان بن عاد

قلت: يا أمير المؤمنين: ما كنت أرى هذا البيت فيها. قال: بل هو فيها(١).

وكان يقرض الشعر، ونُسب إليه نماذج قالها. يُروى له:

إني لأمنـح مـن يـواصلـني مني صـفـاءً لـيس بـالـمَذْق
وإذا أخٌ لي حـال عـن خـلـق داويـت مـنـه ذاك بـالـرفـق
والمـرء يصنـع نفسـه ومتـى ما تبلـه يـرجـع الى العـرق(٢)

ويروى له قبل خلافته قوله:

انْـهَ الـفـؤادَ عـن الـصـبـا وعـن انـقـيـاد لـلـهـوى
ولَعـمـر ربِّك إن في شيـب المفـارق واللـحـى
لـك واعـظـاً إن كـنـت تـتـعـظ اتـعـاظ أولي الـنُهـى
حتـى متـى لا تـرعـوي حـتـى مـتـى وإلى مـتـى؟
مـن بـعـد مـا سُمّيت كـهـلاً واستـلـبـت اسم الـفـتـى
بـلي الـشـبـاب وأنـت إن عـمـرت رهـن لـلـبـلى
وكـفـى بـذلـك زاجـراً لـلـمـرء عـن غِيّ كـفـى(٣)

وهي نماذج لا تنقصها المائية والتدفق

(١) طبقات ابن سعد: ٥/ ٣٧٣.
(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي: ٢٣١.
(٣) سيرة عمر لابن الجوزي: ٢٣١، وانظر نماذج أخرى من شعره في ابن الجوزي: ٢٢٦ - ٢٣٥، والأغاني: ٢/ ٤٥، وحلية الأولياء: ٥/ ٢٦٤، والعمدة: ١/ ٣٧.

عمر والشعراء

١ ـ شعر السفه والانكسار

إن حالة الشعر والشعراء ـ كما آلت إليه في زمان عمر ـ لم تكن في الغالب الأعمّ حالاً مرضية. لقد ارتكست الكلمة ـ كما ذكرنا ـ مرة أخرى في أودية الطيش والسفه، وأوشكت أن تعود إلى جاهلية حمقاء نعاها الإسلام، ودعا إلى وأدها، وضيّع بعض الشعراء الورع، وأنسوا رسالة القول. وها هو ابن عبدالعزيز، أمير المؤمنين، وراعي مصالح الأمة، والمسؤول عن زرع الخير فيها، يسير في درب الكلمة مسيرة جده الفاروق فيرتسم مراسمه، ويهتدي بهديه. يقف للشعراء بالمرصاد، ويعود إلى تثبيت ملامح الكلمة الخيرّة، وإرساء التصور الإسلامي الصحيح.

إن الرؤية الإسلامية للشعر عاشت حالات من المد والجزر، ومن الجلاء والضمور. وإذا كان الالتزام لا يُفرض في العادة فرضاً على الأدباء، وإنما ينبع هذا الالتزام من قوة العقيدة وحرارتها، ويكون صدى لإحساسهم بالمسؤولية، وتمثلهم لقيم الرسالة التي ينهضون بها، فإن للرعاية السليمة، والتوجيه السديد، والسلطة الخيرة الحازمة أثراً كبيراً في تذكير الغافلين، والضرب على يد العابثين المفسدين.

وعمر يأتي على أعقاب فترة ضمور في هذه الرؤية عند بعض الشعراء الذين لم يجدوا من يأخذ على أيديهم، بل وجدوا من يضحك لسفههم وعبثهم، بل يكافئهم على هذا السفه فيجد لهم حقاً في مال المسلمين. لقد اعتادوا أن يأتوا الخليفة مادحين بحق أو باطل، بصدق أو كذب. أن يكونوا في صف المهنئين إن وُلِيّ، المعزين إن مات، المستقبلين للقادم الجديد بما كانوا يستقبلون به سَلفه الراحل، وأن تُغدق عليهم ثمناً لذلك كله العطايا والهبات.

وها هي طائفة من الشعراء تظن ـ وقد آل الأمر إلى عمر ـ أنه مثل سابقيه، عاشق مدح وثناء، وأنه يستأكل بالنفج والإطراء، فتأتيه من الحجاز والعراق، ويكون فيمن حضر «نصيب، وجرير، والفرزدق،

والأحوص، وكثير، والحجاج القضاعي، والأخطل، فمكثوا شهراً لم يؤذن لهم. ولم يكن لعمر فيهم رأي ولا أرب، وإنما كان رأيه وبطانته وأهل أربه القرّاء والفقهاء ومن وُسم عنده بورع، يبعث إليهم حيث كانوا من بلدانهم. . . »(١).

إن هذا الموقف ـ وإن عكس زهداً في الشعراء، وانصرافاً عنهم ـ لا يتوجّه إليهم جميعا، ولا يمثل رغبة عن الشعر عامة، ولكنه متّجه إلى طائفة منهم، إلى من وسم عند الخليفة الراشد بقلة الورع، ومن آنس منه التزلف والنفاق. إن عينة الشعراء الذين ذكرت أسماؤهم تقع في دائرة الظن السيء عند عمر بن عبدالعزيز، ويدل على ذلك ما ورد في بقية الخبر السابق، إذ لما طال مكث القوم على باب الخليفة لا يُؤذن لهم، دخل عليه رجاء بن حيوة ـ من خطباء الشام ـ فتعلّق به جرير قائلاً له:

يا أيها الرجل المُرْخي عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل رجاء، ولم يذكر من أمرهم شيئاً. ثم مر عديّ بن أرطأة، فقال له جرير:

يا أيها الرجل المرخي عمامته هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أني لدى الباب كالمصفود في قرن
لا تنس حاجتنا لقّيت مغفرة قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فدخل عدي على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين: الشعراء ببابك، وسهامهم مسمومة، وأقوالهم نافذة. قال: ويحك يا عدي، مالي وللشعراء؟ قال: أعزّ الله أمير المؤمنين، إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد امتُدح وأعطى، ولك فيه أسوة. قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس فأعطاه حُلّة قطع بها لسانه، قال: تروي من قوله شيئا؟ قال: نعم، فأنشده:

(١) سير عمر لابن الجوزي: ١٦٦.

رأيتك يا خير البرية كلّها . . . إلخ .

قال : ويحك يا عدي، من بالباب منهم . قال : عمر بن أبي ربيعة . قال : أليس القائل :

ثم نبّهتها فهبت كعاباً   طلقة ما تبينُ رجع الكلامِ
ساعة ثم إنها بعدُ قالت :   ويلتا، قد عجلت يا ابن الكرام
أعلى غير موعد جئت تسري   تتخطى إلى رؤوس النيام؟

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه، لا يدخل والله علي أبداً. بالباب سواه؟ قال : همام بن غالب، يعني الفرزدق، قال : أوليس هو الذي يقول :

هما دلّتاني من ثمانين قامة   كما انقضّ باز أقتمُ الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا :   أحيّ يرجّى أم قتيل نحاذره؟

لا يطأ والله بساطي . فمن سواه بالباب؟ قال : الأخطل . قال : يا عدي، أليس الذي يقول :

ولست بصائم رمضان طوعاً   ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بزاجر عيساً بكوراً   إلى بطحاء مكة للنجاح
ولست بزائر بيتاً بعيداً   بمكة أبتغي فيه صلاحي
ولست بقائم كالعبد أدعو   قبيل الصبح : حيّ على الفلاح
ولكني سأشربها شَمولا   وأسجد عند مُنبلَج الصباح

والله لا يدخل علي وهو كافر أبداً. فهل بالباب سوى من ذكرت . قال : نعم الأحوص . قال : أليس هو يقول

الله بيني وبين سيّدها   يفرّ مني بها وأتّبعه

قال : فمن ها هنا أيضاً ؟ قال : جميل بن معمر . قال : يا عدي، أليس هو الذي يقول :

أيا ليتنا نحيا جميعاً وإن أمت يوافقُ في الموتى ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب إذا قيل قد سوّي عليها صفيحُها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً. والله لا يدخل علي أبداً. فهل سوى من ذكرت أحد. قال: نعم، جرير. قال: أما أنه الذي يقول:

طرقتْك صائدةُ القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان لا بد فهو. . .(١)

إن هذا الخبر الذي نقلناه على طوله هام جداً، فهو يحمل عدداً من الدلالات، ويعكس مجموعة من القواعد والأصول الأدبية التي كان عمر بن عبدالعزيز يتكىء عليها في نقده للشعر، وفي تعامله مع الشعراء:

١ ـ فهو يدل على ثقافة عمر الشعرية، وغزارة محفوظه من فن القريض، لقد استشهد بنماذج من أشعار جميع من وقفوا على بابه.

٢ ـ وهو يعكس حساً نقدياً مرهفاً، وذوقاً أدبياً مصقولاً، ومعرفة بفن القول، وقدرة على نقده، والنفاذ إلى بواطنه وأسراره.

٣ ـ وهو يعكس معرفة بمكانة الشعراء، وتمييزاً لأقدارهم ومنازلهم، وإدراكاً تاماً لأفكارهم واتجاهاتهم ومنازعهم في القول. إنه وعي ولي الأمر الحكيم، الذي آلت اليه مسؤولية المسلمين غير غافل عن ضروب الرجال، ولا سيما أصحاب الكلمة من الأدباء والشعراء الذين يمثّلون وجوه القوم، وأصحاب الرأي والحكمة فيهم.

٤ ـ ولكن الخبر يمثّل في الوقت نفسه عدم الرضى عن أمثال هذه الطائفة من الشعراء، الذين لا يراعون أمانة القول، ولا يعرفون حق

(١) سيرة عمر لابن الجوزي: ١٦٧ ـ ١٧٠، وفي العقد: ٢/ ٩١ ـ ٩٥ خلاف يسير في بعض الأبيات التي استشهد بها عمر.

الكلمة. إنهم ـ في معايير عمر ـ شعراء السّفه والانحدار. وإنه ـ وهو الخليفة الراشد الذي يعد رأيه تمثيلا للسلطة ـ لا يمكن أن يتخذ هؤلاء بطانة له، أو يكونوا من أصحاب الشأن عنده. وهو إذ يقول لعدي: «مالي وللشعراء؟» لا يقصد الشعراء كافة، وإنما يقصد هذه الطائفة وأضرابها، ممن حادوا عن الجادة، وممن عرض أمثلة واعية تصور منازعهم الفكرية، وعدم التزامهم بالكلمة الخيرة الهادفة.

٥ ـ وإذا عرفنا أن هؤلاء الذين ذُكرت أسماؤهم في الخبر هم أكبر شعراء العصر، وأكثرهم شهرة وذيوعاً وسيرورة شعر، أدركنا أن هذا الموقف ـ من ولي الأمر ـ يعني شيئاً غير قليل من التحجيم وتقليم الأظافر، كما يحمل في ثناياه الدعوة إلى مراجعة النظر في الحكم على هؤلاء، وإنزالهم منازلهم الحقيقية على ضوء التذكير بعبثهم.

إن أشباه هؤلاء الشعراء لا يصلحون ـ على أخفّ تقدير ـ أن يكونوا ممثلي مجتمعهم، أو شاهد عصرهم، ولا يمكن أن يحظوا برضى السلطة الرسمية التي تحرص على خير القوم وصلاحهم.

٦ ـ ويعد نقد عمر بن عبدالعزيز لهؤلاء نقداً حكيماً معلّلاً. إنهم ـ في مثل الحال التي هم عليها ـ طائفة مرفوضة. وأشعارهم لا تقدّم الضرب الذي يصادف هوى في نفس الرجل، وهو يعلّل هذه الجفوة تعليلاً تطبيقياً، بإيراد نماذج من أقوالهم تمثل انكساراً في وظيفة الشعر النبيلة، وخروجاً به عن جادة الحق والالتزام.

٧ ـ ومن الواضح أن المعيار النقدي الذي فاء إليه عمر في الحكم على الشعر، وفي قبوله أو رفضه، هو معيار خلقي، ينبع من تعاليم الدين، ويغترف من معين التصور الإسلامي للشعر. إن الإسلام لا يقبل إلا الحق والخير، لا يقبل إلا ما يأمر بمعروف، أو ينهى عن منكر. وأما الأمثلة التي قدّمها الناقد الخليفة نماذج تعكس اتجاهات هؤلاء الشعراء، وتدلّل على منازعهم الفكرية، فهي نماذج منحرفة، تخدش الرؤية الإسلامية، وتطوي اعتداء على القيم الخيرة. إن ابن أبي

ربيعة يستبهر بالفاحشة، ولا يتستر أو يكتم، ولذلك قال عمر: «فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه». ومثله الفرزدق والأحوص في الجهر بالمعصية. وأما الأخطل النصراني فهو يستهين بقيم الإسلام، ولعله يسخر منها، وأما جميل فيصور عشقاً مبالغاً فيه، يملأ أقطار نفسه، حتى يشغلها عن العمل الصالح، ولذلك يقول عمر في نقده: «فلو كان عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحاً».

إن أقل ما يقال عن أمثال هذه النماذج من الشعر أنها تُشعر ـ كما يقول السيوطي(١) ـ برقة الدين. ولا يتوقع ـ على ضوء معيار نقدي يحتكم إلى العقيدة ـ أن تحظى بالقبول، أو تصادف استحساناً في ذوق الخليفة الورع عمر بن عبدالعزيز.

٢ ـ شعر الخير والالتزام:

ذكرنا قبل قليل أن زهد عمر لم يكن في عامة الشعراء، بل فيمن لم يكن من أهل الفضل والصلاح منهم. وذلك نابع من طبيعة الوظيفة التي يؤمن ناقد إسلامي مثل عمر أن الأدب ينبغي أن يؤديها. إن عمر ـ في تعبيره عن الرؤية العقدية ـ لا يريد شعراء يتاجرون بالكلمة، أو يتخذونها مطية تزلف ونفاق لتحقيق أغراض خسيسة، يهيمون ـ بتعبير القرآن ـ في كل واد، ويضربون على جميع الأوتار، بلا هدف ولا رسالة، بل يريد أن يكون الشاعر داعية خير، يصدع بالحق، وينشر الفضيلة. إن عمر ليس كغيره من الخلفاء والملوك حريصا على شاعر يمدح ويطري، ولكنه شديد الحرص على شاعر يعظ ويذكّر بالحكمة. دخل خالد بن صفوان على عمر بن عبدالعزيز، فقال: «يا أمير المؤمنين. أتحب أن تُطرى: قال: لا. قال: أفتحب أن تُوعظ؟ قال: نعم. فقام، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد..»(٢).

---

(١) شرح شواهد المغني: ١/ ١٩٧.

(٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم: ٩٥.

وقد أوصل عمر هذه الرسالة التي يريدها من أصحاب الكلمة منذ تولى خلافة المسلمين، إذ صعد المنبر، فكان في أول خطبة خطبها قوله: «أيها الناس: من صحبنا فليصحبنا بخمس، وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه. فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت الفقهاء والزهاد، وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله..»(١).

نعم، انقشع عنه شعراء السوء، الذين لا يعرفون إلا المديح والهجاء والفخر، وأغراض الجاهلية الحمقاء، لأنه لا مكان لهم عند مثل هذا الخليفة الراشد، وأما أولو الفضل منهم، وأصحاب الكلمة الخيرّة، الذين يعينون على الحق، ويكونون أدلاء عليه، فإن عتبة ابن عبدالعزيز موطّأة لاستقبالهم. كان سابق البربري، الشاعر الفقيه الزاهد، واحداً من هؤلاء. كان كثير الدخول على عمر، إذ كان يؤدي في مجلسه حق الشعر، فكان يستمع إليه، ويستنشده، ويتأثر بمواعظه وحكمه حتى يسقط مغشياً عليه. أنشده مرة قصيدته الطويلة ومنها:

باسم الذي قد أنزلت من عنده السور ... والحمد لله، أما بعدُ يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر ... فكن على حذر، قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المجلوب وارضَ به ... وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرىء عيش يُسرّ به ... إلا سيتبع يوماً صفوَه كدر
واستخبر الناس عما أنت جاهله ... إذا عميتَ، فقد يجلو العمى البصر
قد يرعوي المرء يوماً بعد هفوته ... وتحكم الجاهلَ الأيام والغِيَرَ..(٢)

---

(١) مختصر تاريخ دمشق: ١٠٨/١٩.
(٢) سيرة عمر لابن الجوزي: ١٤٢.

وروى ميمون بن مهران قال: دخلت على عمر بن عبدالعزيز يوماً وعنده سابق البربري ينشده شعراً، فكان مما حفظت:

فكم من صحيح بات للموت آمناً ... أتته المنايا بغتة بعدما هجعْ
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة ... فراراً، ولا منه بحيلة امتنع
ولا يترك الموت الغنيَّ لماله ... ولا معدِماً في المال ذا حاجة يدع

فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غشي عليه(١).

ودخل عليه مرة فقال له: «عظني يا سابق وأوجز» فقال: نعم يا أمير المؤمنين وأبلغ إن شاء الله تعالى. قال: هات. فأنشده هذه الأبيات:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ووافيت بعد الموت من قد تزوَّدا
ندمت على ألا تكون شريكه ... وأرصدْت قبل الموت ما كان أرصدا

فبكى حتى سقط مغشياً عليه(٢).

إن عمر بن عبدالعزيز صاحب حس أدبي مرهف، وهو يعشق القول الجميل، ويهوى استماعه. ولكن الضرب الذي يصادف هوى في نفسه ما كان في دائرة الحق والخير. إن الشعر ليس فن القول الجميل والعبارة الرشيقة فحسب، ولكنه كذلك فن الكلمة الهادفة، والرسالة النبيلة الملتزمة. وقد أثر عن عمر التمثل بهذا الضرب من الشعر في مواقف كثيرة. كان ينشد قول الشاعر:

ولا خير في عيش امرىء لم يكن له ... من الله في دار الحياة نصيب
فإن تُعجب الدنيا أناساً فإنها ... متاع قليل والزوال قريب(٣)

وكان يتمثل بقول الشاعر:

---

(١) بهجة المجالس: ٥/٢٣٨، ابن الجوزي: ١٤٥.
(٢) الحلية: ٥/٣١٨، ابن الجوزي: ١٤٥.
(٣) بهجة المجالس: ٢/ ٢٨٥.

من كان حين تصيب الشمس جبهتَه ... أو الغبارُ يخاف الشينَ والشعثا
ويألف الظلَ كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوماً راغماً جَدثا
في قبر مظلمة غبراءَ موحشة ... يطيل بها ـ ولا يختارها ـ اللبثا
تجهزي بجهاز تبلغين به ... يا نفس واقتصدي لم تخُلقي عبثا(١)

ويقول الشاعر:

أيقظانُ أنت اليوم أم أنت نائم ... وكيف يطيق النومَ حيرانُ هائم
فلو كنت يقظانَ الغداةَ لحرَّقت ... مدامعَ عينيك الدموعُ السواجم
نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة ... ونومك ليل والردى لك لازم
يغرّك ما يفنى وتشغل بالمنى ... كما غُرّ باللذات في النوم حالم
وتشغل فيما سوف تكره غبّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم(٢)

إنما نماذج تمثل شعراً هادفاً، يواطىء التصور الإسلامي، ويتجند لخدمة العقيدة والخير، وهو ما لا يجد عمر حرجاً في حفظه وإنشاده واستقبال أصحابه والاستمتاع إليهم.

٣ ـ مواقف مع الشعراء

واذا كان رفض عمر استقبال من عُرف بقلة الورع من الشعراء في مجالسه إعلاناً رسمياً عن السخط، وضرباً من الردع وتقليم الأظافر، فإن عمر ـ وليَ الأمر المسؤول ـ لم يكتف بهذا الموقف وحده، بل مضى يمارس حق السلطة في حماية الكلمة، ويطارد فلول الجاهلية الشعرية. تصدى لشعراء الانحراف ألواناً من التصدي. وأُثرت عنه مواقف مختلفة، مثّل بعضها:

ـ الإرشاد والتذكير:

من ذلك مثلا موقفه من جرير. لقد رأينا في الخبر الذي مرّ قبل

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٣٢٤.

(٢) بهجة المجالس: ٢/ ٣٢٥، وانظر نماذج أخرى مما كان يتمثل به في الحلية: ٥/ ٣١٨، ٣١٩، ابن الجوزي: ٢٣١.

قليل أن عمر بن عبدالعزيز لم يأذن لمن وقف ببابه من الشعراء إلا لجرير، فقد وجده أقرب المجتمعين إلى العفة، وأبعدهم عن سفه ومجون، وإذا كان لا بد من استقبال من يمثل الشعراء، لأنهم طائفة من المجتمع، ولعله يحمل إليهم رسالة أمير المؤمنين، فليكن جريراً، قال عمر: «إن كان ولا بد فهو» وأدخله، فلما مثُل بين يديه ذكّره بحق الكلمة قائلا: «ويحك يا جرير! اتق الله ولا تقل إلا حقاً»(١).

وأدرك جرير أنه أمام نمط آخر من الخلفاء، نمط يريد شاعراً يذكّر ويعظ، لا يمدح ويتزلف، فقال: يا أمير المؤمنين: إني أُخبرتُ أنك تحب أن تُوعظ ولا تُطرى. فائذن لي في الكلام، فأذن له، فقال قصيدته التي منها:

لجّت أمامة في أمري وما علمت ... عرض اليمامة روحاتي ولا بُكَري
ما همّ القوم مذ شدوا رحالهم ... إلا عشاشاً لدى أعصارها اليسر
يصرحن صرح حصى المعْزى إذا وقعت ... شمس النهار وعاد الظل للقمر
إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم اكتفى بالذي أنبئتَ من خبري
ما زلت بعدك في دار تقحّمُني ... وضاق بالحي اصعادي ومنحدَري
لا ينفع الحاضرُ المجهود بادَينا ... ولا يعود لنا باد على حضر
كم بالمواسم من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

يدعوك دعوة. .(٢) إن الشعر ها هنا رسالة وتذكير، صحيح أن جريراً يشكو ضراء خاصة، ولكنه يتحدث كذلك عن ضراء عامة، وعن شدة أمسكت المسلمين في بعض البلدان، وقد آتت الرسالة الصادقة أكُلها، إذ ترقرقت عينا عمر، وقال: إنك لتصف جهدك، فقال جرير: ما غاب عني وعنك أشد، فجهز الخليفة إلى الحجاز عيراً

(١) ابن الجوزي: ١٧٠، وفي العقد: ٢/ ٨٩ «إنك مسؤول عما قلت».
(٢) السابق وصفحته.

بحمل الطعام والكُسىٰ والعطاء يبث في فقرائهم. . ثم التفت الى جرير قائلا: أخبرني أمن المهاجرين أنت يا جريـر؟ قـال: لا. قـال: فبينك وبين الأنصار رحم أو قرابة أو صهر؟ قال: لا قال: فممن يقاتل على الفيء أنت يجلب على عدو المسلمين؟ قال: لا(١). قال: فلا أرى لك في شيء من هذا الفيء حقاً. قال: بلى والله: لقد فـرض اللـه لي فيـه حقاً إن لم تدفعني عنه. قال: ويحك، ومـا حقك؟ قـال: ابن السبيـل أتاك من شقة بعيدة فهو منقطع بـه على بـابك. فقـال: إذن أعطيك. فـدعـا بعشرين دينـاراً فضلت من عطـائه، فقـال: هــذه فضلت من عطائي، وإنما يُعطى ابن السبيل من مال الرجل، ولو فضـل أكثـر من هذا أعطيتك، فخذها، فإن شئت فاحمد، وإن شئت فذُمّ. قـال: بـل أحمد يا أمير المؤمنين. فخرج، فجهشت إليـه الشعـراء، وقـالـوا: مـا وراءك يا أبا حزرة؟ قال: ليلحق الرجل منكم بمطيته، فإني خـرجت من عند رجل يعطي الفقراء ولا يعطي الشعراء. وقال:

وجدت رُقى الشيطان لا تستفزّه وقد كان شيطاني من الجنّ راقيا(٢)

إنها رسالة من عمر يحملها جرير إلى الشعراء يذكـرهم ـ إن كـانـوا ناسين أو متناسين ـ أنه لا حق لهم في مال المسلمين على شعر يقولونـه في الخليفة، فليكفوا بعد اليوم عن المتاجرة بالكلمة، والاسترزاق بها.

ولعل عمر بن عبدالعزيز أذن في مرة أخرى ـ وقـد حـدثـه في ذلك مسلمة بن عبدالملك ـ لبعض الشعراء أن يدخلـوا عليـه في يـوم جمعـة بعدما أذن للعامة، فدخل كثير، وقال: يا أمير المؤمنين، طـال الثـواء وقلت الفائدة، وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب، فقال: يـا كثير،

(١) في الأغـاني: ٨/ ٤٨ «ما أنا بـواحـد من هؤلاء، وإني لمن أكثر قـومي مـالاً، وأحسنهم حالاً، ولكني أسألك ما عودتنيه الخلفاء: أربعة آلاف درهم، وما يتبعها من كسوة وحملان، فقال له عمر: كل امرىء يلقى فعله، وأما أنا فـما أرى لك في مـال اللـه حقـاً، ولكن انتظـر يخرج عطائي. . ثم إن فضَل فضل صرفناه إليك. .».

(٢) ابن الجوزي: ١٦٧ ـ ١٦٨.

أما سمعت إلى قول الله عزّ وجل في كتابه: «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم». أفمن هؤلاء أنت؟ ثم استأذن كثير في الإنشاد، فقال له مذكراً بأمانة القول، ومسؤولية الكلمة: «قل، ولا تقل إلا حقاً، فإن الله سائلك». وتكرر هذا النصح والتذكير للأحوص عندما دخل، ولما فرغ من إنشاده قال له مرة أخرى: «يا أحوص، إن الله سائلك عن كل ما قلت»(١).

إنها الرسالة نفسها التي حملها من قبل جرير، يحملها الآن كثير والأحوص: أن القول أمانة، فاتق الله فيه أيها الشاعر، وأن الكلمة أسمى من أن تنتهك على أبواب التزلف والنفاق، وأن تكون سلعة تباع وتشترى.

ـ التهديد والوعيد

واذا لم يجُدِ مع أصحاب الكلمة الزائفة النصح والتسديد فان الوعيد خطوة أخرى في طريق الردع. روي أن الفرزدق كان كثير الانتجاع للشرفاء بالمدينة، ولذلك شكاه أهلها لعمر بن عبدالعزيز في وقت خصاصة، فأمره بألا يتعرض لهم، ودفع إليه أربعة آلاف درهم. ومر الفرزدق بعد نهي عمر له بعدالله بن عمرو بن عثمان، وهو جالس في دهليزه وعليه عمامة وخز ومطرف، فقال فيه:

أعبد الله إنك خير ماش.. الخ.

فخلع عليه ثيابه، ودفع اليه عشرة آلاف درهم. فاتصل ذلك بعمر، فأحضره وقال له: ألم أتقدم إليك بألا تعرض بمدح ولا هجاء، وقد أجلتك ثلاثاً، فإن وجدتك بعدها نكلت بك..»(٢).

---

(١) الأغاني: ٩/٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(٢) الممتع في علم الشعر وعمله: ٢٠.

إن الفرزدق يتاجر بالكلمة، وهو ينتجع الشرفاء للاستعطاء، والشعر يلعب ها هنا دور الابتزاز والإحراج، وقد نهى عمر عن المديح والهجاء، فني السفه، عندما يجندان في غير ما أراد الإسلام لهما، وإذا كان لشبهة أن تكون الحاجة هي التي حملت الفرزدق على الاستئكال بالشعر، لأن القوم في زمن خصاصة، فإن عمر بن عبدالعزيز يترسم مراسم جده الفاروق من قبل مع الحطيئة، إذ قطع ابن الخطاب حجته بأربعة آلاف درهم اشترى بها منه أعراض المسلمين(١). وها هو ابن عبدالعزيز يسد الذريعة التي قد تحمل الفرزدق على ترك التصوّن والتعفّف، فيدفع إليه ما يكفيه إن كان محتاجاً، ولكن الشاعر لا يرتدع، فيأمره عمر بالجلاء عن المدينة، ويهدّده أن ينكّل به إن عاد سيرته الأولى.

ومن قبيل هذا الموقف خبره مع حميد الأمجي الذي بلغه شعر له، فأحضره، وقال له: ألست القائل:

حميد الذي أمج داره ... أخو الخمر ذو الشيبة الأصلع

أتاه المشيب على شربها ... وكان كريماً فلم ينزع

قال نعم. قال: ما أراني الا سوف آخذك، إنك أقررت بشرب الخمر، وإنك لم تنزع عنها. قال: أيهات، أين يذهب بك؟ ألم تسمع الله يقول: «والشعراء يتبعهم الغاوون» الى قوله: «وأنهم يقولون ما لا يفعلون». فقال: أولى لك يا حميد، ما أراك إلا قد أفلت. ويحك يا حميد، كان أبوك رجلا صالحا، وأنت رجل سوء»(٢).

إن في كلام عمر تهديداً ونصحاً، ولو ثبت أن قول حميد اقترن بالفعل لأقيم عليه الحد، ولكن في قوله ما يصور سفهاً يجعله في مواطن المساءلة والوعيد، ويجعله رجل سوء يضيع صلاحاً كان عليه

(١) انظر مناقب عمر: ٢٧٩، تعليق من أمالي ابن دريد: ٨.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢/ ١١٨، مختصر تاريخ دمشق: ١٩/ ١٢٠، معجم البلدان (أمج).

أبوه.

ومن مواطن الوعيد موقفه من نصيب، فقد دخل عليه مرة في حاجة، فقال له: «إيه يا أسود، أنت الذي تشهّر النساء بنسيبك؟ فقال: إني تركت ذلك يا أمير المؤمنين، وعاهدت الله عز وجل ألا أقول نسيباً، وشهد له بذلك من حضر، وأثنوا عليه خيراً. فقال: أما إذا كان الأمر هكذا فسل حاجتك(١).

بدأ عمر كلامه باستفهام يحمل معنى الإنكار والتهديد، ولكن نصيباً كف وازدجر، وأشهد على ذلك، ولولا نزوعه عن غي كان فيه للقي من الخليفة جفوة. ولعل نصيباً قبل هذا اللقاء قد طرد من مجلس عمر، ولم تجد وساطة مسلمة بن عبدالملك له عند الخليفة كما أجدت مع صاحبيه كثير والأحوص، فعندما تقدم يستأذن في الإنشاد «أبى أن يأذن له، وغضب غضباً شديداً، وأمره باللحاق بدابق»(٢).

ـ القصاص:

وإذا لم يردع النصح ولا التهديد، وتحوّل الشعر إلى مطية شر وإفساد، صار القصاص حقاً لدفع الضر، وتثبيت الخير. وقد تجلى موقف عمر بن عبدالعزيز في ملاحقة المجّان من أصحاب الكلمة ومعاقبتهم على سفههم مع الأحوص وعمر بن أبي ربيعة. كان الأحوص يشبّب بنساء الأشراف في المدينة، ويشيع ذلك في الناس، فنُهي فلم ينته، فشُكي إلى عامل سليمان بن عبدالملك، فأمر سليمان بضربه مئة، وأن يقيمه على البُلُس للناس ثم يسيره إلى دَهلك. وظل منفياً إلى أيام عمر بن عبدالعزيز، فاستأذنه الأحوص في القدوم، فلما أُسمع شيئاً من شعره الماجن أبى ردّه. وقال: لا رددته ما كان لي سلطان(٣). ويبدو أن حال الأحوص قد صلحت، أصلحها العقاب،

---

(١) الأغاني: ١/ ٣٤٧.

(٢) الأغاني: ٩/ ٢٦٠.

(٣) خزانة الأدب: ٢/ ١٨.

فرده عمر، وقد رأيناه في خبر عرضنا له يدخل عليه في حاجة، فيسأل الخليفة عن أمره، فيُشهد له بالنزوع عما كان فيه، فيقضي حاجته بعد أن يذكّره برسالة القول.

وأما عمر بن أبي ربيعة فكان «فاسقاً، يتعرض لنساء الحاج، ويشبّب بهن، فنفاه عمر بن عبدالعزيز إلى دَهلك»(١).

إنها مواقف مطاردة السفه، والضرب على أيدي غواة الكلمة، واجتثاث لها على نحو ما أراد الله. وإنه لون من عقاب الذين يسعون في الأرض فساداً أن ينفوا من الأرض. وقد جاء العقاب بالنفي بعد نهي طويل لم يرتدع فيه من ركبوا متن الكلمة الضالة من أمثال الأحوص وعمر بن أبي ربيعة.

المعايير العقدية في الحكم

وضح من خلال المواقف المختلفة لعمر بن عبدالعزيز مع الشعراء وأصحاب الكلمة أن الرجل قد خطا بالأدب خطوة أخرى في طريق الرؤية الإسلامية، ومثّلت ملاحظاته النظرية والعملية محاولة جادة لترسيخ هذه الرؤية، وتثبيت أقدامها، وذود الزيغ الذي عاد يعتريها. صدر عمر في جميع أقواله ومواقفه من الشعر والشعراء عن معيار عقدي ملتزم، يرى الكلمة مسؤولية وأمانة، فمضى يحذر من جموحها، ويدعو إلى السيطرة عليها. كان يقول: «المحظوظ من يُلجم لسانه»(٢)، وراح يخوّف من فتنتها، وأن تكون بديلاً للفعل أو تناقضه، يقول: «إن للكلام فتنة، وإن الفعال أولى بالمؤمن من القول»(٣)، ويقول: «من لم يَعُدّ كلامه من عمله كثُرت ذنوبه»(٤). ودعا إلى توجيه الكلمة، وأن تكون ملتزمة بهدف نبيل، وأن تأرب

(١) خزانة الأدب: ٢/ ٣٣.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٨٥.
(٣) مختصر تاريخ دمشق: ١٩/ ١٢٠، ابن سعد: ٥/ ٣٧١.
(٤) ابن الجوزي: ٢١٣، الحلية: ٥/ ٢٩٠.

إلى تحقيق رسالة خيرة، فهي ليست هدفاً في حد ذاتها، أو تقال للتطرُّب والمباهاة، يقول عمر عن نفسه: «إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة»(١).

وخير الكلام ما كان في الحق والخير. يقول الخليفة الراشد: «تحدثوا بكتاب الله تعالى، وتجالسوا عليه، واذا مللتم فحديث من أحاديث الرجال حسنٌ جميل»(٢).

لقد حاكم عمر بن عبدالعزيز ضروب القول دائما إلى هذه الضوابط العقدية الكريمة، واتخذها معايير في نقد الشعراء، وفي قبول الشعر أو رفضه. فالشاعر عنده رجل موقف، وسفير خير، إنه صاحب دعوة، وحامل رسالة. والشعر ليس مهنة أو تجارة، وهو لا يوجب لصاحبه الحق في مال المسلمين، ولا يجوز أن يُسخر في التزلف إلى السلطان والتكسب والمطامع الشخصية.

إن عمر ـ إذ يُوصف بأنه لا يعطي الشعراء ـ يصون كرامتهم، ويسمو بهم عن أن يكونوا سلعة بخسة تباع لمن يدفع اكثر، وهو ـ في الوقت ذاته ـ يجل نفسه عن أن يمتهن الكلمة، فيشتريها بمال المسلمين. إن عمر لا يخدعه المديح، ولا تستفزه ـ بتعبير جرير ـ رُقَى الشياطين، فيخرج عن تواضعه، وينسى عبوديته لله. إنه أجل من أن يُستأكل بالشعر، أو يكون ممن يسخّر الشعراء لمديحه شأن كثيرين من أولي الأمر. لقد تغيرّت أحوال عمر بن عبدالعزيز عندما تولى مسؤولية المسلمين، فصار يكره المديح، ويعشق الوعظ والتذكير. قال ابن الجوزي: «قد كانت الشعراء تمدحه في إمارته، فلما وُليّ لم يُؤثر ذلك، فربما أنشدوه وهو كاره»(٣)، وقد أطراه مرة رجل في وجهه، فقال له: «يا هذا، لو عرفت من نفسي ما أعرف منها ما نظرت في

---

(١) ابن الجوزي: ١٦٥.

(٢) سيرة عمر لابن عبدالحكم: ١١٨، بهجة المجالس: ١/١١٦.

(٣) ابن الجوزي: ٢٩٠.

وجهي»(١).

ولم تكن معايير عمر الجديدة ـ بعد عهد من الانكسار ـ خافية على أحد، فها هو كثيرّ يقول بعد خروجه من عنده لصاحبيه: الأحوص ونُصيب، المنتظرين على باب الخليفة الإذن بالدخول: «جدّدا لعمر من الشعر غير ما أعددناه، فليس الرجل بدنيوي»(٢). إنها عبارة بالغة الدلالة والوضوح في أن شعر الدجل والنفاق، الشعر غير المسؤول، الذي اعتادت عليه طائفة من الشعراء، لن يجد حظوة عند هذا الرجل غير الدنيوي، لأنه يحتكم إلى غير المعايير التي كان يحتكم إليها غيره.

بل إن عمر يمضي أكثر من ذلك في اتّكائه على المعيار العقدي في الحكم النقدي، فسوء سلوك الشاعر قد يكون مدعاة لإسقاطه، وزحزحته عن مكانته، وتقديم الشاعر ذي الفعال الحسن عليه. وقد عبرّ ابن عبدالعزيز عن ذلك صراحة في موازنته بين الفرزدق وجرير، فقد بلغه أن الفرزدق زنى فنفاه، وجرّب جريراً فبانت له عفته، فقال بعد أن حدّث الناس بفعال جرير والفرزدق: «عجباً لقوم يفضّلون الفرزدق على جرير مع عفة بطنه وفرجه»(٣).

إنها دعوة واضحة صريحة إلى الاهتداء بالمعايير الخلقية في الحكم على الشعراء، وفي إعطائهم أقدارهم.

وعلى الرغم من أن حكمه النقدي في الموازنة بين جرير والأخطل كان قبل توليه الخلافة التي غيرّت كثيراً من مواقفه، إلا أنه لا يبتعد ـ فيما نوجه ـ كثيراً عن هذا المعبار الخلقي. سأله سليمان بن عبدالملك مرة: «أجرير أشعر أم الأخطل؟ فقال: اعفني. قال: لا أعفيك. قال: إن الأخطل ضيّق عليه كفرُه القول. وإن جريراً وسّع عليه

(١) ابن الجوزي: ١٧٥.

(٢) الأغاني: ٩/ ٢٥٧، وفي العقد: ٢/ ٨٧ «خذا في شرح من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه، فإن الرجل آخري، وليس بدنيوي».

(٣) الممتع في علم الشعر وعمله: ١٥٦.

إسلامه قوله، وقد بلغ الأخطل حيث رأيت. فقال سليمان: فضّلت والله الأخطل»(١).

إن هذا النص لا ينتقص من مقدرة الأخطل الشعرية، ولا يبخسه حقه من حيث المهارة الفنية، إنه شاعر فحل أُوتي ملكة شعرية متميّزة، وعلى كفره بلغ منزلته المعروفة، ولولا كفره لبلغ مكانة أرفع، فقد ضيّق كفره القول عليه، ولو كان شاعراً مؤمناً لكان مدى القول أمامه أرحب، شأن جرير.

وهكذا يبقى لمعيار العقيدة والدين دور في تقدير مكانة الشاعر. وفي توجيهنا للنص أن عمر بن عبدالعزيز يقرر حقيقة تتعلق بالأخطل وجرير: أن الأول شاعر بلغ ـ على كفره ـ مكانة رفيعة، ولولاه لكانت أرفع. وأن الثاني شاعر مؤمن وسّع عليه إيمانه منافذ القول. وليس تفضيلاً للأخطل على جرير كما ذهب إلى ذلك سليمان. وفي كل الأحوال يبقى هذا النص حكماً نقدياً جمع بين معياري الفن والعقيدة، وهو يمثل مرحلة ما قبل الخلافة.

نماذج تطبيقية

وهذه نماذج مما أُثر عن عمر بن عبدالعزيز في نقد الشعر، يتضح من خلالها المعيار العقدي الذي كان يفيء إليه الرجل في الحكم على الكلام، وفي قبول القول أو رفضه.

قال خالد بن عبدالله القسري لعمر يهنّئه بالخلافة: «من كانت الخلافة زانته فإنك قد زنتها، ومن كانت شرّفته فإنك قد شرّفتها، فأنت كما قال القائل:

وإذا الدر زان حسن وجوه ... كان للدرّ حسنُ وجهك زينا

فقال عمر: «أُعطي صاحبكم مقولاً، ولم يُعط معقولاً»(٢)، وفي

---

(١) شرح شواهد المغني: ١/١٢٦.

(٢) عيون الأخبار: ٢/٩٣.

رواية: «إن صاحبكم أعطي مقولاً ولم يعط معقولاً، وزادت بلاغته، ونقصت زهادته»(١).

إنها دعوة إلى الاقتصاد، وإلى اجتناب الشطحة، وركوب ظهر الغلو.

وفي هذا السياق من نقد جموح الكلمة قوله لرؤية بن العجاج الذي دخل على سليمان بن عبدالملك، وقد جلس للصحابة، فأنشده:

خرجت بين قمر وشمس بين ابن مروان وعبدشمس

يا خير نفس خرجت من نفس

فقال عمر بن عبدالعزيز: «كذبت، ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٢).

إنها أيضاً دعوة إلى الاقتصاد، وإلى إيقاع الكلام مواقعه الصحيحة، فقد أسرف رؤبة في إسباغ المديح على سليمان، وتزيّد في القول، ومثل الصفات التي أطلقها عليه تجدُر بمن هو أكرم وأشرف، وتليق بواحَد مثل النبي صلى الله عليه وسلم.

ودخل ابن لقتادة بن النعمان الطفوي على عمر، وكان أبوه قد أصيبت عينه يوم أحد، فجاء بها النبي، صلى الله عليه وسلم، فردّها عليه، فكانت أحسن عينيه، فقال الفتى أمام عمر وقد سأله: من أنت؟

أنا ابن الذي سالت على الخدّ عينُه فرُدت بكفّ المصطفى أحسن الردّ

فعادت كما كانت لأحسن حالها فيا حُسن ما عين ويا طيب ما يد

فقال عمر: بمثل هذا فليتوسل المتوسلون، ثم قال:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا(٣)

---

(١) ابن الجوزي: ٩٣.

(٢) الإشراف: ق ١٠ أ.

(٣) ابن الجوزي: ٢٢٨.

إن الرجل يفتخر، وقد أقرّه عمر، لأنه ليس فخر الجاهلية، ليس المباهاة بالحسب والنسب والقيم الرعناء، بل فخر البلاء الطيب، والمثل الحميدة، فخر الجهاد في سبيل الله، والفوز برضى رسوله.

ومن هذا القبيل ما روي من أن رجلاً من الأنصار قام إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا فلان بن فلان، قُتل جدي يوم بدر، وعمّي يوم أحد، فجعل يذكر مناقب آبائه، فجعل عمر ينظر إلى عنبسَة بن سعيد، وقال: هذه والله المناقب، لا مناقبكم: مسكن والجماجم، ثم تمثل:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا[1]

إنها دعوة واضحة إلى الفخر بالقيم النبيلة، والمثل الرفيعة، قيم الحق والخير، قيم تقرّب إلى الله زلفى، وتكون مثلاً كريماً يصح الاقتداء به، ونهي عن الفخر بأعراف جاهلية لا غناء فيها.

وإذا اتفق أن كانت أغلب النماذج التي حجبت الشعراء عن عمر في غرض الغزل، فإن هذا لا يعني أن هناك موقفاً رافضاً لهذا الغرض كله، ولكنه رفض متجه إلى النماذج الرديئة منه، النماذج الإباحية المستبهرة بالفاحشة، إلى ما يمثل خروجاً على العفة، وانتهاكاً للحرمات على نحو ما اتضح مما احتج به عمر في مواقف متعددة، ولا يبدو التعبير عن عاطفة سامية، أو تصوير مشاعر نبيلة عفة داخلاً في حيز المساءلة والنهي، فقد روي أن عمر بن عبدالعزيز كان يعجب بقول قيس بن الخطيم:

بين شُكول النساء خلقتُها ... قصدٌ فلا جَبلةٌ ولا قضفُ

تنام عن كبر شأنها فإذا ... قامت رويداً تكاد تنقصف

تغترق الطرف وهي لاهية ... كأنما شفَّ وجهها نُزفُ

---

(١) ابن الجوزي: ٢٢٩، وانظر خبراً مشابهاً لهذا في سيرة لابن عبدالحكم: ١٢٢.

ويقول: «قائل هذا الشعر أنسب الناس»(١)، وفي رواية: «هذا والله هو الكلام»(٢).

خـاتمـة

تلك كانت جولة فيما وقع لنا من آراء عمر بن عبدالعزيز ومواقفه من الشعر والشعراء. ويمكننا في ختام هذا البحث أن نشير إلى أبرز وجوه الفاعلية النقدية التي عبرت عنها هذه الآراء في النقاط التالية:

ـ عمر بن عبدالعزيز ناقد إسلامي، وقد مثّلت أفكاره ومواقفه المختلفة من أصحاب الكلمة خطوة في طريق التصور الإسلامي للأدب، ومحاولة لترسيخ الرؤية العقدية له. انطلق الخليفة الناقد في أحكامه على الشعراء وأولي القول من معايير العقيدة والدين، فاستلهمها في الرضى والقبول، والإعجاب والنفور، بل في تقدير الشعراء أحياناً، وإنزالهم منازلهم الفنية والاجتماعية.

ـ وهو ولي الأمر المسؤول عن شؤون المسلمين، وإحقاق وجوه الخير في جميع جوانب حياتهم، ولا تمثّل آراؤه ومواقفه ـ بحكم هذا الموقع في السلطة ـ رأياً شخصياً، أو ذوقاً فردياً، فحسب، ولكنها تحمل ـ إلى جانب هذا ـ دلالة أنها توجيه رسمي للكلمة وأصحابها، ودعوة إلى الالتزام والمسؤولية.

ـ وتعدّ آراؤه ـ على أعقاب فترة انتكست فيها حركة الشعر في جاهلية حمقاء أراد الإسلام القضاء عليها ـ إصلاحاً لهذه الحركة، وتجديد الدعوة إلى الأدباء وأصحاب الكلمة، أن يتّقوا الله في القول، وأن يراعوا حقوقه، وأن يغترفوا من منهل العقيدة في تصورهم وتصويرهم للأشياء التي يعبرون عنها، وأن يكونوا أصحاب رسالة نبيلة، يصدعون بالحق، ويكونون رسل خير وإصلاح، وأصحاب

---

(١) الأغاني: ٣/ ٤٢.

(٢) الإشراف: ق ٦٥.

دعوة وتذكير، لا أصحاب دجل ونفاق، ومدح وهجاء.

ـ رفض عمر المتاجرة بالكلمة: من الأديب ورجل السلطة، فالأديب الشريف ينزّه قلمه أن يكون في خدمة السلاطين، أو جهاز إعلامهم في الحق والباطل، وينزّه نفسه أن يكون عالة على موائدهم وهباتهم، ويشرُف بنفسه وأدبه عن هذا الدرك إلى رسالة نبيلة. وولي الأمر الصادق الشريف لا يسخّر الأدباء ـ وإن رضُوا ـ لخدمته، أو يجعلهم طبولاً جوفاء لمديحه وتمجيده، ثم يغدق عليهم من مال المسلمين ثمناً لذلك، ولكنه يربأ بنفسه وبهم عن هذه الوهدة، فيعينهم على أداء رسالتهم، فيقرّب مجالسهم، لا ليُطروه فيضلّوه، أو يمدحوه لينفجوه ويغطرسوه، ولكن ليذكّروه إن نسي، ويعظوه إن ضلّ، ويفطّنوه إن جهل.

ثَبَتٌ بالمصادر

١ ـ الإشراف في منازل الأشراف: ابن أبي الدنيا، مخطوط، دار الكتب المصرية، رقم ٨٧٧٠ أدب.

٢ ـ الأغاني: أبوالفرج الأصبهاني، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

٣ ـ بهجة المجالس: ابن عبدالبر القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م.

٤ ـ تعليق من أمالي ابن دريد، تحقيق السيد مصطفى السنوسي، الكويت: ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م.

٥ ـ حلية الأولياء: أبونعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م، ط رابعة.

٦ ـ خزانة الأدب: عبدالقادر البغدادي، تحقيق عبدالسلام هارون، الهيئة المصرية العامة، القاهرة: ١٩٧٦م.

٧ ـ سير أعلام النبلاء: تحقيق مجموعة من الأساتذة، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٨ ـ سيرة عمر بن عبدالعزيز: ابن الجوزي، تحقيق محب الدين الخطيب، مصر، مطبعة المؤيد ومكتبة المنار.

٩ ـ سيرة عمر بن عبدالعزيز: عبدالله بن عبدالحكم، تحقيق أحمد عبيد، عالم الكتب، بيروت: ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م، ط سادسة.

١٠ ـ شرح شواهد المغني: السيوطي، لجنة التراث، بيروت، من دون تاريخ.

١١ ـ الطبقات الكبرى: ابن سعد، دار صادر، بيروت: ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م.

١٢ ـ العقد الفريد: ابن عبدربه الأندلسي، تحقيق أحمد أمين، إبراهيم الإبياري، عبدالسلام هارون، القاهرة: ١٩٤٩.

١٣ ـ العمدة: ابن رشيق، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت: ١٩٧٢ م، ط رابعة.

١٤ ـ مختصر تاريخ دمشق: ابن منظور، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الفكر، دمشق.

١٥ ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي.

١٦ ـ الممتع في علم الشعر وعمله: عبدالكريم النهشلي، تحقيق د. منجي الكعبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس: ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

١٧ ـ مناقب عمر بن الخطاب: ابن الجوزي، تحقيق د. زينب إبراهيم القاروط، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

١٨ ـ نصوص النظرية النقدية عند العرب من العصر الجاهلي إلى أوائل القرن الثالث الهجري: د. وليد قصّاب، المكتبة الحديثة، العين: ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م.